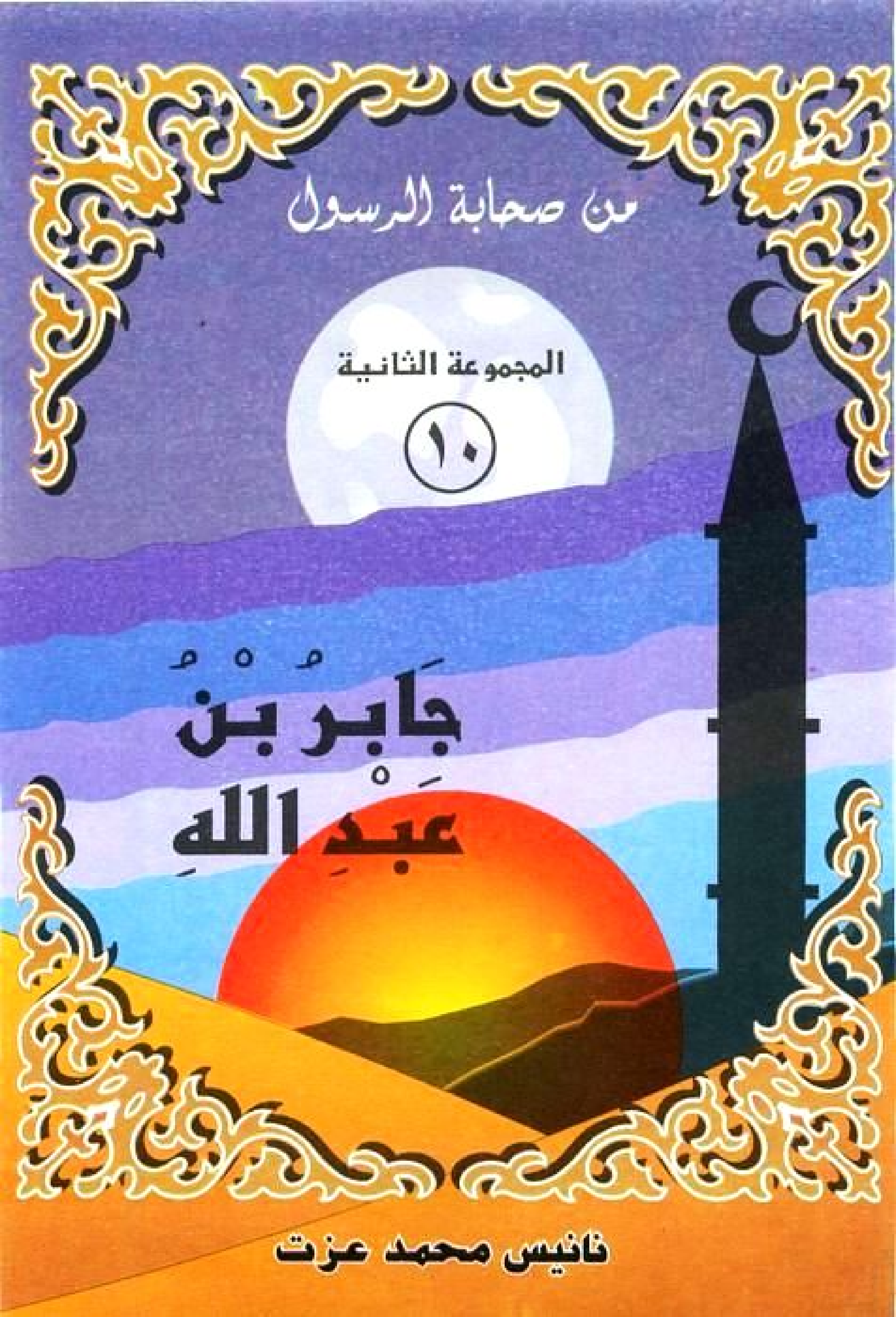


من صحابة الرسول
المجموعة الثانية
١٠
جَابرُ بْنُ
عَبْدِ اللهِ
نانيس محمد عزت

جابرُ بنُ عبدِ اللّه

استَيقظَ عثمانُ من النَّومِ نَشِطا ، فاليومَ هو يومُ الجُمُعَةِ حيثُ الصَّلاةُ فى المسجدِ جَماعَة ، والاستِمتاعُ بسَماعِ خُطبَةِ الجُمُعَةِ ؛ فلها قيمَةٌ عظيمَة ، تنفعُ المُسلمينَ وتُناقِشُ أُمورَ دينِهم ، وتَنفعُهُم فى حاضِرِهم ، وتُرشِدُهم إلى خَيرِ مُستقبَلِهم .

اغْتسلَ عُثْمانُ ، فالاغْتِسالُ يومَ الجُمُعَةِ سنَّةٌ عن النّبىِّ ـ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم ـ وهو يُحبُّ أن يَقتدِىَ بسُنَّتِه .

فلَبِسَ أحسنَ ثيابه واسْتَعدَّ للخُروج . وسُرَّ والِدُ عُثمانَ لنَظافةِ عُثْمانَ وحُسنِ هندامِه ، وقالَ له :

ـ ما شاءَ اللّهُ يا عُثْمان . هلْ ستَركَبُ معى السَّيارةَ فى الذّهابِ إلى المَسجد ؟

أجابَه عُثمانُ مُعتَذِرا : لا ، بل سأذْهبُ إلى الـمَسجدِ ماشِيا ، فقد قالَ الرَّسولُ ـ صلَّى اللَّهُ عَليهِ وسَلَّم ـ « مَن تَطهَّرَ في بَيتِه ، ثمَّ مضَى إلَى بَيتٍ من بُيوتِ اللَّهِ لِيَقضِيَ فَريضةً من فَرائِضِ اللَّه ، كانَت خُطُواتُهُ الواحدَةُ تَحُطُّ خَطيئَة ، والأُخرَى تَرفَعُ دَرجَة » .

قالَ والِدُه : إذَنْ لِنَذْهَبْ سَيراً على الأَقدامِ مَعا .

وفى الطَّريقِ إلى الـمَسجدِ قالَ والدُ عُثمان :

ـ ذكَّرتَنى يا عُثمانُ بجابِرِ بنِ عَبدِ اللَّه ، أحَدِ صَحابَةِ الرَّسول ـ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسَلَّم ـ يومَ غَزوَةِ الرّومِ عِندَما رفَضَ أن يركَبَ دابَّتَه ، وفضَّلَ أن يَسير على قَدمَيْه لقَولِهِ ـ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم : « مَن اغْبَرَّتْ قدَماهُ فى سَبيلِ اللَّه ، حَرَّمَهُ اللَّهُ على النّار » .

قالَ عُثمان : هَلْ لكَ أن تَحكِيَ لى قِصَّتَهُ يا أبى ، كما عَوَّدتَنى أن تَقُصَّ علَيَّ قِصَصَ بعضِ الصَّحابَة ؟

أومأَ والِدُهُ بالإيجاب ، وقال :

ـ سأفعلُ إن شاءَ اللّه .

وبعدَ صَلاةِ الـجُمُعة ، ورجوعِهما إلى البَيت ، جلَس عُثمانُ أمامَ والِدِه ، يَستَمعُ إلى سيرةِ جابرِ بنِ عَبدِ اللّه .

قالَ والِدُه : نَشأَ جابرُ بنُ عَبدِ اللّهِ في الـمَدينَة ، وكانَ في الـمَدينَةِ آنَذاكَ مُصعَبُ بنُ عُمَيْر ، سَفيراً للنّبيّ مُحمَّد ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسَلّم ـ يَدعو النّاسَ إلى الإسْلام ، ويُعلّمُهم مَبادِئَه ، ويُفقّهُهُم في تَعاليمِه . ونجحَ مُصعَبٌ في الـمُهِمَّةِ الّتي وُكِلتْ إلَيه ، فأَسلَمَ على يَدِهِ كَثيرٌ من أهلِ الـمَدينَة ، وكانوا جَميعاً يتلَهَّفونَ لِليَومِ الّذي يَلقَوْنَ فيهِ الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ فيُعلِنونَ إسْلامَهُم بينَ يَدَيْه .

* * *

خرَجَ أهلُ الـمَدينَةِ ـ الأَنْصارُ فيما بَعد ـ فـى رَكـبٍ جَليل ، وساروا صَوْبَ مكّة ، وكانَ ضِمنَ هذا الرَّكـبِ عَبدُ اللّهِ بنُ عَمْرو الخزرَجىّ ، وقدِ اصْطَحـبَ معَـهُ ابنَـهُ جابِر ـ وكانَ لم يبلُغ الـحُلمَ بعـد ـ وكـانَ لجـابِرٍ تِسـعُ أخواتٍ من البَنات ، فلم يَكنْ لِلشَّيخِ عَبدِ اللّه بنِ عَمْرو الخزرَجىِّ ولدٌ ذكَرٌ غيرُ جابر .

وما إنْ رأى جابِرٌ الرَّسولَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ حتّى بُهِرَ بإشْـراقِ وَجهِـه ، وسَـماحَتِهِ وصِدْقِـهِ وحُسـنِ خُلُقِه ، فسَرَى فى وِجْدانِهِ نورُ الإيمانِ به ، واسْتَقَرَّ فى قَلبِهِ حُبُّه ، حتّى أصْبحَتْ صورَتُهُ لا تُفارِقُ خَيالَهُ أبَدا .

* * *

وعندَما هاجَرَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ إلى المَدينَة ، لَزِمَهُ جابِرُ بنُ عَبدِ اللّه ، فتعَلّمَ منه الكثير ، وقد كانَ من أنجَبِ مَن حَفِظوا القُرآنَ الكَريم ، وتَفقّهوا فى الدّين . وكـانَ كذلِك

من أكثرِ الصَّحابَةِ حِفظاً للحَديث ، حتّى إنّه رَوَى وحْدَه ، ألفاً وخمسَمائةٍ وأَربَعينَ حَديثاً ، حَفِظَها عن النّبيِّ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ ورواها للْمُسلِمينَ من بَعدِه .

وقد مدَّ اللّهُ فى عُمرِ جابرِ ، حتّى نَيَّفَ على المِائَةِ عام ، قضاها كُلَّها فى العِلمِ والعِبادَةِ والجهادِ فى سَبيلِ اللّه ، والحِرصِ على فِعلِ كُلِّ ما يُقرِّبُهُ من الجَنّة ، ويُبعدُهُ عنِ النّار .

قالَ عثمان : لقَدْ صَدقَ عَليهِ المَثَلُ الّذى يَقول : العِلمُ فى الصِّغَر ، كالنّقشِ على الحَجَر . فقد تَفتّحَ قلبُهُ للإسْلام منذُ نعومَةِ أظفاره ، فكانَ كالصَّفْحةِ البيْضاءِ الّتى خَطَّ عَليها الإسْلامُ نورَ العِلمِ والمَعرِفَة ، ليَكونَ مَصدَرَ إشْعاعٍ لأَجْيالٍ كَثيرَةٍ من بَعدِه .

قال والِدُه : ولم يَشتَرِكْ جابرٌ فى غَزوَتَىْ بَدرٍ وأُحُدٍ لصِغَرِ سِنّه ، وقد مَنَعَهُ عنِ الاشتِراكِ فيهِما سَببٌ آخَر ،

هو أنَّ أباهُ كـانَ قـد أمَرَه أن يَبْقَى مـعَ أخَواتِـه البَنـاتِ التّسْع ، فلم يكنْ لهنَّ أحَدٌ سِواه ، يَقومُ على أمرِهِنَّ .

ولمّا كانَتْ ليلَةُ غَزْوَةِ أُحُـد ، دَعـاهُ أبوهُ الشَّيخُ عَبدُ اللّهِ بنُ عَمْرِو الخَزرَجِيّ ، وقالَ له : إنّي لأَرانـي مَقْتـولاً مع أوّلِ من يُقتَلُ من أصْحابِ الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ وإنّي واللّهِ ما أَدَعُ أحَـداً أعـزَّ علَـيَّ مِنـكَ بَعدَ رَسولِ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليـه وسَلّم ـ وإنَّ علَـيَّ دَيْنـاً فاقْضِ دَيْني ، وارْحَم أخَواتِكَ ، واسْتَوصِ بهِنَّ خَيْراً .

وصدَقَ ما توقَّعَ عبدُ اللّهِ والِدُ جابِر ، فقد كـانَ أوّلَ شُهَداءِ غَزوَةِ أُحُد ، و حينَ بَكاهُ جابرٌ قالَ ـ صلّى اللّهُ عليـه وسَلّم ـ « ابْكوه ـ أولا تَبكوه ، فإن المَلائكَةَ لَتُظِلُّهُ بأَجْنِحَتِها » .

ولَقِيَ الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ جـابِراً يَومـاً فسأَلَه : يا جابِرُ ، ما لي أَراكَ مُنكسِراً مُهْتَماً ؟

فأخْبرَهُ جابرٌ أنَّ والِدَهُ تَركَ وراءَهُ عِيالاً كثيرين ، ودَيْناً يصْعُبُ عَليهِ قَضاؤه .

فسرَّى عنه الرَّسولُ ـ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم ـ ، وقال : إنَّ اللَّهَ أحيا أباكَ وكلَّمَهُ كِفاحاً ـ أى مُواجَهَة ، وما كلَّمَ اللَّهُ أحَداً قَطُّ إلاَّ مِن وَراءِ حِجاب ، فقالَ لَهُ : يا عَبْدى ، سَلْنى أُعْطِك . فرَدَّ عليه قال : يا رَبِّ أسألكَ أن ترُدَّنى إلىَ الدُّنْيا ، لأُقتَلَ فى سَبيلِكَ مرَّةً ثانيَة . فقالَ لَه : « إنَّه قد سبَق القَولُ مِنّى ، أنَّهم إلَيها لا يُرجَعون » . فقال : « يا رَبِّ ، أبلغْ مَن وَرائى بِما أُعطيتُ من نِعمة » . فأنزلَ اللَّهُ تَعالى : ﴿ ولا تحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلوا فى سَبيلِ اللَّهِ أمْواتا ، بل أَحياءٌ عندَ ربِّهم يُرزَقون ، فَرِحينَ بما آتاهُمُ اللَّهُ من فَضلِه ، ويَستَبشِرونَ بالَّذِين لم يلحَقوا بِهِم من خَلفِهِم ألاَّ خَوفٌ عَليهِم ولا هم يَحْزَنون ﴾ .

ابتسمَ إسماعيلُ وقال : يـا لَـهُ مـن فَضـلٍ عَظيـمٍ لجابرٍ وأَبيه ، أن يُنزِّلَ اللّـهُ فيهمـا قُرآنـا ، فهَنيئـاً لعَبـدِ اللّـهِ بـنِ عَمروٍ الخَزرَجِيِّ بالـجَنَّة . ويا لَها من بُشرَى لجابرِ بنِ عَبـدِ اللّه ، إنَّ اللّهَ لن يُضَيِّعَهُ هو وأخَواتِه التِّسْعَ من بَعد والدِه .

قالَ أبوه : هَذا صَحيحٌ يا وَلَدى ، فقد سَرَتْ كَلِماتُ الرَّسول ـ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّم ـ والآيـاتُ المبارَكـاتُ مَسْرَى السِّحرِ فى جابر ، فأزاحَتْ عنهُ الهمَّ والكَرب .

وصَحِبَهُ الرَّسولُ ـ صلَّـى اللّـهُ عليـه وسَلَّم ـ إلَى بَيـدَرِ التَّمر ، حيـثُ جمعَ جابرٌ تَمرَه ـ وطلـبَ منـه أن يَدْعُوَ الدَّائنين ، وببَركَةِ بِسـمِ اللّـهِ ، وبفَضـلِ اللّهِ تَعالَى ، دفـعَ ـ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّم ـ لهم دَينَهُم من تَمرِ تلكَ السَّنَة ، حتى وَفَّى الدَّينَ كلَّه . ولِشِدَّةِ عَجبِ جابرٍ ، أنَّه نظرَ إلى البَيْدَرِ فوَجدَهُ مملوءًا كما كانَ ، كأنَّما لم تَنقُص مِنهُ تَمرَةٌ واحِدَة .

قالَ إسْماعيلُ مُتعَجِّباً : أحقًّا هذا يا أبى ؟

قالَ والِدُه : ولِـمَ العَجَـبُ يـا إسْـماعيل ؟ ألَـمْ تتـنزَّلْ الآياتُ ﴿ ألاَ خَوفٌ عليهِم ولا هُم يَحزَنـون ؟ ﴾. إنَّهـا البَركَةُ يا وَلَدى . ولعلِمِـكَ فقـدْ حَـدثَ مَوقِـفٌ مُشـابِهٌ لِهَذا يومَ غَزوَةِ الـخَندَق .

قالَ إسْماعيلُ مُتَعَجِّلاً والِـدَه : مـا الَّـذى حـدَثَ يـومَ الخَندَقِ يا أبى ؟ قُصَّ عَلىَّ ...

قـالَ والِـدُه : تعلَـمُ يـا إسْماعيلُ بـالطَّبع ، قِصَّـةَ حَفـرِ الخَندَق ، وما عاناهُ المُسلِمونَ فى أثنـاءِ حَفـرِهِ مـن تَعـبٍ وجـوع .ورَغْـمَ ذلـك كـانوا يُـؤدّونَ عَملَهُـم راضِـينَ مُستَبشِرينَ بنَصر اللّه . ورأى جابرٌ الرَّسولَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلَّم ـ يعْمَلُ معَهُم ويَحمِلُ الحِجارة ، وقـد ربَـطَ حَجَرًا على بَطنِهِ من شِـدَّةِ الجوع ، فقـد مضَـى عَليهـم ثَلاثَةُ أيامٍ لم يَذوقوا خِلالَها شَـيئاً مـن الطَّعـام . فاسْتَأذَنَ جابِرٌ لبَعضِ الوَقـت ، وعندمَـا بلـغَ بيْتَـهُ قـالَ لزَوجَتِـه :

رأيتُ برَسولِ اللَّه ـ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم ـ من مَرارَةِ الجوعِ ما لا يَصبِرُ عَليهِ أحَد ، فهل عِندَكِ من شَيء ؟

قالت : عِندى قليلٌ من الشَّعير ، وشاةٌ صَغيرَة .

فذبَح جابرٌ الشَّاة ، وطحَنَ الشَّعير ، وعِندما بَدأَ الطَّعامُ يَنضَج ، ذهبَ لرَسولِ اللَّه ـ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم ـ وقال : طُعَيِّمٌ صَنعناهُ لكَ يا نبيَّ اللَّه ، فقُمْ أنتَ ورَجلٌ أو رَجُلانِ مَعَك .

فقالَ ـ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم ـ : كَم هو ؟

فلمَّا عَلِمَ بِمِقدارِ الطَّعام ، قال : يا أهلَ الخَندَق ، إنَّ جابراً صنعَ لكُم طَعاماً فهَلُمّوا إلَيه .

وقَالَ لجابِر : اِمضِ إلى زَوجَتِكَ وقلْ لَها : لا تُنزِلى قِدرَكِ عنِ النّار ، ولا تَخْبزى عَجينَكِ حتىَّ أجيء .

واهتَمَّ جابرٌ بأنَّ ما عِندَهُ من الطَّعام ، لا يكفى سِوَى بِضعةِ أشْخاص ، فما بالُكَ بأهْلِ الخَنْدقِ جَميعاً ؟

قال إسْماعيل : حَقًّا إنّه مَوقفٌ حَرِج .

قال وَالِدُه : لا حَرَجَ إن شاءَ اللّه ، فكما حلّتِ البَرَكَةُ فى التّمر ، وقضَى به الرَّسولُ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ دينَ عبدِ اللّه ، كذلِكَ حلّتِ البَرَكَةُ بطَعامِ جابر ، فغرَفَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ وأطْعَمَ أهلَ الخَندَقِ جَميعاً حتى شَبعوا ، ومازالت القِدرُ مَملوءةً كما هىَ ، ومازالَ العَجينُ يُخْبَزُ كما هو .

ثُمَّ قالَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ لزَوجَة جابِر : كُلى وأَهْدى .

فأكلَتْ وجَعلتْ تُهدى طَوالَ ذلكَ اليَوْم .

قالَ إسْماعيل : لابُدَّ أنَّ مالَه كان حَلالاً فَباركَ اللّهُ فيه .

قال والِدُه : وهلْ فى ذلك شكّ ؟ إن صحابَةَ الرَّسولِ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ إذا ما شَكّوا فى وُجودِ جُزءٍ واحدٍ حرامٍ فى مالِهم أو فى طَعامِهم ، وتسعةٍ وتسعينَ

جزءاً حَلال ، تركوا مـالَهم أو طعامَهم كلّـه خوفـاً مـن الجزءِ الحرام .

* * *

ونعودُ إلى جهادِ جابر ، لنَرى أنّه لم تفُتْه غَزوةٌ واحِـدةٌ منذ وَفاةِ والِدِه ، فاشترَكَ فى غَزوتَـىْ بَنى قُريظَـةَ وبَنـى الـمُصطلق ، وشهِدَ صُلْحَ الـحُديبِيَة ، وبايَعَ الرَّسـولَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ تحتَ الشجرةِ فى بَيْعةِ الرِّضوان ، واشترك فى فتحِ خَيْبَر .

وفى العام السّـابعِ للهِجـرَة ، اشْـترَكَ فـى غَـزوَةِ ذاتِ الرِّقاع ، وهى الغزوةُ التى أدمتْ قَدمَيِ الرَّسولِ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ وأصحابه من طـول الـمَسافَةِ وكَثرةِ الـمَشْى ، فربطوا أقدامَهُـم بقِطَـعٍ مـن القُمـاش ، وحيـنَ وصلوا إلى مِنطَقةٍ بها أشْـجار ، جلـسَ كـلٌّ منهـم تحتَ شَجرةٍ ليَستريح ، فجاءَ رجلٌ من الـمُشركينَ فاختَرطَ ـ

اخْتَطفَ ـ سَيفَ الرَّسولِ ـ صلّى اللّهُ عليـه وسَلّم ـ ، فقال : أتخافنى يا مُحمَّد ؟ قال : لا . فقالَ الرَّجُل : فمن يمنَعُك منّى ؟

قال ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ : اللّه .

فمكثَ الرَّجلُ لا يَستطيع أن يتحرَّكَ من مَكانِه .

وعفا عنه ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم .

ابتسم إسماعيلُ سُرورا ، فقال والِدُه : إنها الثّقةُ باللّهِ يا ولدى .

واشترَكَ جابرٌ بعد وفاةِ الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ فى حُروب الرِّدة ، كما خرجَ غازياً إلى بلاد الرّوم تحتَ قِيادَة مالكِ بن عبدِ اللّهِ الخَثْعَمِىّ .

وعندمَا رآه مالكٌ ماشِياً ومعه بغلٌ يُمْسِكُ بزمامِه ويَقودُه ، قالَ له : لِم لا تَركبُ يا جابر ، وقد يسَّر اللّهُ لك ظهراً يحمِلُك ؟

قالَ جابر : يَمنَعُنى قولُ الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ « من اغْبرَّتْ قَدماهُ فى سَبيلِ اللّه ، حرَّمه اللّه على النّار » .

وما أنْ سَمِع الجَيشُ قولَ جابِر ، إلاّ ونزلَ الجميعُ عن دَوابِّهم ، كلٌّ مِنهم يُريدُ أن يَفوزَ بِهذا الأَجر . فما رُئِىَ جيشٌ أكثرَ مُشاةً من ذلك الجَيش .

* * *

وكما قلت لك يا إسْماعيل ، فإنّ جابراً تُوفّىَ وقد نَيَّف على المِائةِ سنَة ، قضاها كلَّها فى سَبيلِ اللّه .

قالَ إسْماعيل : شُكراً لك يا أبى على قِصَّتِك ، فهى جِدُّ شائقَة ، ومليئَةٌ بالعِظاتِ والعِبَر . وإنَّ سيرَةَ أصْحابِ الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ لا يُشبَعُ منها أبَداً .

قالَ والِدُه : صدَقَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ حين قال : « أصْحابِى كالنُّجوم ، بأيِّهمُ اقتَدَيتُم اهْتَدَيتُم » .